

العقم ...

للأستاذ عباس أبو شوشة

العقم علة من أخطر العلل الاجتماعية تكون في الأفراد وتكون في الجماعات . والعقم عقبان : مادي ومعنوي . فأما المادي فهو تدم الإنتاج الجنسي ، وأما المعنوي فهو عدم الإنتاج الحيوي ، وأعني به الإنتاج العلمي والأدبي والخلقي .

وإني جاعل ذلك أقساما ثلاثة : أولها عقم الفرد أو عقم البيت ، وثانيها عقم المدرسة ، وثالثها وأخطرها علة الأمة ، وهو نتيجة لازمة للعقمن الآخرين .

فأما عقم الفرد فإن كان ماديا فأمره في يد الطب ، قد تجتهد فيه حيلة إذا كانت العلة عارضة ، وقد تعي به إن كان من نقص في التكوين الفطري . وليس الذنب في ذلك ذنب الأطباء ، ولا ذنب الأمهات والآباء ، فهو أمر لا يملكون له عن أنفسهم دفعا ولا تعويلا ، وإما إن كان هذا العقم معنويا فالنتيجة لا محالة واقعة على أولئك الأزواج الذين هم كبسات الطير يعقبون ، ولكنهم لا ينجبون ، كثرة ما يهملون في رعاية بيوتهم ، وقلة ما يشرفون على تربية ذرياتهم . وإني لأبوين يقتلان النهار نائمين ، ويحييان الليل قائمين ، لا في ساجد الله ، ولا بين يدي الله ، ولكن في المراقص والملاهي ، وبين السداسي ولأخدان ، أي لهما أن يعرفا من أمر البيت ومن في البيت شيئا جل أو حان . هذا إلى القدوة السيئة التي تتجسم فيهما لأولادهما من الانحراف عن الصراط السوي والميل إلى الغواية والاسراف البغيض ، وإني لتلك النظرية المنكودة أن تذوق طعم التربية الصالحة وأمرها موكول إلى خدم جهال لا تتلقى عنهم ، ولا تتلقن منهم إلا أخيب العادات ، وأسوأ الأخلاق . ولقد تعلم الأثم الكثير من مجون أبنائها ، وتهالك بناتها ، ثم يدفنها الحنو الأحمق ، أو التذليل الأخرق ، إلى التناقل عن جناباتهم ، والتغاضي عن سيئاتهم ، والصمت عن عوارثهم ، فيزيدهم ذلك غلوا في الفساد ، وإغلا في الجموح حتى يحيق بهم الوبال ، ومثل هذا البيت الزبتر يحمل الأمة أوزاره ، وينشر فيها أوساره ، ويسلط عليها جرائمه الفتاكة تخترق في جسدها ، وتخضعف من علاجها ، ويستحيل عليه أن يزودها بعضو واحد نافع يكسب له أثر في تكوينها ، أو يقيم لبنة في بنائها .

ثم لننتقل إلى الأمة الثانية ، والأب الثاني ، وهما المدرسة ومعلم المدرسة . وصلته هذه البنية بوضوعنا قاصرة على العقم المعنوي . وإني ليؤسفني جد الأسف أن أجد المدرسة وأن عيبها بالتثقيف العامي قد تسامت إلى حد بعيد في بناء أخلاق أبنائها أو بذل شيء من الرقابة عليهم لتبين نواحي النقص منهم فتعمل على تنويرها ، وتدمج أقياس الفضيلة فيهم فتعني بتربيتها ، بل لا أكون متجنبا إذا أشرت إلى روح التواكل والمخادعة

الذي يدب إلى نفوسهم عن طريق المحابذة وما يشبه الغش بالتمسح أو التصريح لهم عن مواضع (امتحاناتهم) ، فيقتصرها همهمهم في الاستدكار عليهم ، ويخوزوها على غير علم تغيرها ، أو تحصيل لما ندادها . وإذا هم انتقلوا من مراحل الدرس إلى مرحلة الحياة العمالية مرحلة الجهاد الحق فبعد بهم قصور تفكيرهم ، وشفور وفاضهم عن التقدم وعن النهوض ، وعن التعمير وعن الانتاج ، وليس بمجد على أمة أن يكثر فيها العلماء وتتدفق فيها الأخلاق ، فإن العلم الذي لا تدعمه مائة الخلق أشبه ما يكون بالسراج الخالي من الزيت لا يضيء ولا يتهدي به .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وأخيرا يحمي دور الأمة التي يبتعث عليها إلى عظم المهند ، ونظم المعبد ، إحصام قياتها عن الزوينة فرارا من مسؤولياتها - وإشغافا من تبعاتها ، وإمعانا في الاستمتاع باللذة الحرة الهينة ، واندفاع قياتها في تعويق النسل بل وفي تحريمه حرصا على رشاقتين ، وأبناء على شياهن أن تدويه مشاق الحمل ، وآلام الوضع وهزال الأرضاع ، وتحذرا من الاضطلاع بواجبات التربية ، فيناقص عديد الأمة على توالي السنين ، وتقل فيها الأيدي العاملة ، والتراخي المشمرة .

وكأن بصوت زعيم فرنسي (كايو) لا يزال يدوي في استماع العالم وقد لحظ التناقص المتوالي في تعداد أمته فوقف يدعو قومه وهو لا يملك أن يخفض صواعده وفرائده ، أو يكتمكف هوامل عبراته ، أسى على ما ينظر برندا من سوء المآل ، ويهيب نقادتها وأولى الرأي فيها أن يوقفوا تيار هذه العلة المصطنعة ، ويحذوا من طغيان هذه الشهوة الخائفة ، ويتداركوا تلك الكارثة الوطنية الجاثمة ، ويعملوا على توفير النسل فيرعوا الشبان على الزواج ، ويحذوا النساء على الإنتاج لأن أمهم تيسر سيرا حثينا إلى الفناء . وضرب لهم مثل رأم في تكاثر أفيادها كالجراد ، يربو ويزداد ، ثم تألف منه فرق وأسراب تجرؤ الأبدان ، وتهاجر من واد إلى واد ، فيحشى الناس بأسها ، ويحسبوا لها حسابها . والأمة إذا كثرت وانتشرت في تناع الأرض ، حلت معها مدنيتها ونشرت ثقافتها ، فاستطع نورها ، ويرتفع قدرها ، وينظم خطها . وفي الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "تناكوا تناسلوا فإن مباءكم الأمم يوم القيامة" تلك كانت احية من العتم المساد . كانت أن تودي بأمة من أقدم الأمم لها ماضيها وطاير ينجح . وإست عندة احية . نع حطرا على بلد من أن تستفحل فيه علة النمط ، أو الخط ، فتصرف فيه شؤون عن غير عودها ، وتوضع الأمور في غير نصابها ، وتكفر فيه جهود لعاميين ، ويذم فيه شأن العاقين ، وينسى فيه القانون الساموي الذي وضعه الله سبحانه وتعالى ميزانا للتقدير فقال "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" ولم يقل أوجهكم ولا أعضاكم . وفي آية أخرى "لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل . أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا" ، بفعل تكريم والتعريف على قدر لطاعة ولعمل الصالح ، وجعل القائل على قدر البذل والجهاد .

وما أقرب الملكة من أمة ينشأ فيها الناشئ فيكبح ويكبد ، ويدأب ويعد ، ويدرس ويحصل ، ويعد نفسه لفن من الفنون يحسنه ويحذقه ، حتى إذا بلغ الغاية التي يؤمل عندها أن ينفع وطنه بعلمه ، أو صدت دونه الأبواب ، ونثرت في طريقه الأشواك ، وصرف عن العمل الذي خلق له ، إلى التحلم يدخل في حسابه فيعطل تفكيره ، وتشل جهوده ، ويظل عقيا قد ذهب تحصيله أدراج الراح ، ولا ذنب له إلا نبوغه وخوف من سبقوه أن يظهر عليهم أو يزحم الطريق الذي يساكونه ، ويطنى ، البريق الذي يصطنعونه ، ويعشون به أعين الناس فلا تتكشف لها الحقيقة عن أمرهم . ويعمل فيها العامل فيبذل قصارى جهده ، وعصارة نفسه ، في إقتان عمله ، وهو يعتقد أن إخلاصه وكفائته ، ونزاهته واستقامته ، واصلته به إلى الميزة التي يجب أن ترفعه إليها صفاته وترقى به إليها مؤهلاته ، من تكريم أو تقريب ، فإذا ذلك كله لا يفتنيه قليلا ، ولا يجعدي عليه كثيرا ولا قليلا ، إذا حوالم تكن له وشيخة ، وشيخة من قرابة أو محسوبة تدنيه من أصحاب السلطان ، فيفت هذا الظالم في عضده ، ويأبط من شمنه ، ويخذ من نشاطه ، ويستولى عليه التنوير ، فيعود سقيا عقيا ، ويقف إلى جانبه زليل هزيل كليل ليس له إنتاج يذكر ، ولا جهد يشكر ، ولم يفتح الله عليه بركة من بركات الدكا ، أو حسن الاستعداد ، ولكن منته بركات الأرحام ، والحسبة على الحكام ، فإذا عوفي الرعيل الأول ، كلما برقت بارقة من أمل في رفع درجة أو توفير رزق ، ولو سودت آفامه السجف ولأأت الطباق ، ولا على مثل هذا ألا يحرك يدا أو يبذل جهدا أو يستقيم على الطريقة مادام آتية رزقه رثدا .

وبهذه الغلات وأشباهاها تقتل اللحم وتتمم الأهم ، وتستحذى فيها النفوس ، فلا يسوءها أن تصبر على الشيم وتقيم على نخسف ، دون أن تحرك ساكنا ، أو تحاور من ربقها تخلصا ، ولقد أحسن شاعر العراق "لرصافي" تصوير هذه الحال في بعداد وقد اصحابها في عنده عبد الحميد ما أصاب جميع شعوب الدولة العثمانية من دوان يدك الشاخات ويؤفد الراسيات وإليك ما قال :

تتأوت الخطوب عليك تترى وبدل منك حلوا العيش مرأ
فنيلا تتجيبين فتي أغرا أراك عقت لا تلدين حرا
وكانت لذته أركى وأود

وهذا المصباح الأعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنه أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق بهيم الثمريف تركوه ، وإذا سرق فيهم التبعيف أقاموا عليه الحد .

نهل لما أن تعرف هذا وتحاباه ، فكون بحق خير أمة أخرجت للناس (يبدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) ويجعل لنا في الحياة سلاطنا قويا ، وتبدأ بين الأمم مكانا عليا ؟

اللهم يسر لقومي علم مالا يعلمون ، واهدهم سواء السبيل لعلهم يرشدون .